

”ذاكرة”

سلمان ناطور

بيت لحم: المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين،
2006. 174 صفحة.

سلمان ناطور، المولود في دالية الكرمل سنة 1949، هو الذاكرة الحية لفلسطيني الجليل. ومنذ روايته الأولى ”أنت القاتل يا شيخ” (1976)، ثم من خلال مجموعاته القصصية الخمس*، تمكن سلمان ناطور من أن يطور لغة أدبية متفردة ومميزة؛ لغة تستند إلى السخرية المرة، وإلى مفارقات العيش تحت الاحتلال، وإلى حكايات الرحيل والبقاء معاً. وليس من المبالغة القول إن سلمان ناطور هو حلقة مهمة في سلسلة الأدب العربي الذي يستعير من قصص الحياة اليومية أدواته التعبيرية، وهو طراز من الإبداع المغمور بالحياة اليومية الذي ازدهر على أيدي مارون عبود في لبنان وإميل حبيبي في فلسطين، وربما نجد له ذيلًا في كتابات محمد المويحي وعبد الله النديم في مصر. وأبعد من ذلك، فإن سلمان ناطور من أبرز رواد الأدب التسجيلي والأدب الشفهي في فلسطين، ولا سيما في كتابيه: ”فلسطيني على الطريق” و”أريحا: رحلة يوم وعشرة آلاف عام”.

في عمله الجديد ”ذاكرة” يتابع سلمان ناطور رصد أحوال الناس من العرب واليهود في قرى الجليل، مستخدماً لغة السينما، فبينما يكون في زمن الانتداب يتحول فجأة إلى زمن الاحتلال والقهر. وشخصياته هي عجائز القرى والمستعمرات أمثال يحزقييل أبو دبوس وشلومو وأبو ربيحة والشيخ المشقق الوجه. أمّا ميدانه فسهرات الليل وملقط النار وحكايات الزير وبير السباع وقصص الخروج في سنة 1948، وذكريات الناس الذين غابوا وتركوا طبيخ نسائهم فوق القدور الساخنة، وأيام الحصاد والبيادر وأم الزينات ومعار ومعلول وعين حوض وهوشة والكساير وإجزم، وحفلات الطراد الدموية التي طالما احتفل بها خنازير الهاغاناه وزعران اليهود ضد الفلاحين في أيام ”الهيج”.

يروى سلمان ناطور: ”ولدت بعد حرب 1948، دخلت المدرسة يوم حرب السويس، أنهيت الثانوية في حرب حزيران [يونيو]، تزوجت في حرب أكتوبر [تشرين الأول]، ولد طفلي في حرب لبنان، ومات أبي في حرب الخليج [...] ولكي تكون مسالماً وإنسانياً، ما عليك إلا أن تتخذ قراراً صارماً بالتوقف عن الإنجاب تحسباً لوقوع حرب جديدة مدمرة” (ص 135). وبهذه اللغة الساخرة والهاذية معاً يتفنن الكاتب في الحديث عن كلمة ”الخنتريش” فيقول إنها كلمة عبرية مصدرها عربي. الأصل: ”قنطار ريش”. ولفظها عامة العرب ”قنطريش”، والمستعمرون ”كنتريش”. أمّا أولاد عمنا الذين تضايقهم القاف العربية فأسقطوها من الأبجدية ولفظوا الكلمة ”خنتريش”. وهكذا تعلمناها نحن ”الغرباء” (ص 19).

* * *

إن هذا الكتاب الممتع والشائق، بلغته الساحرة والأسرة معاً، إنما هو شوط جديد في مسيرة طويلة في الأدب العربي الحديث الذي استند إلى لغة الحياة اليومية واستعار من الناس عباراتهم ومحطات كلامهم، ثم أعاد توظيفها في نص أدبي جميل. وهو، في نهاية المطاف، سجلٌ لذاكرة الناس الذين تشبثوا بديارهم ولم يرحلوا إلى الدول المجاورة. وفي قصص هذا الكتاب – الذاكرة تشتبك

ذاكرتان: ذاكرة من رحل، وذاكرة من بقي. ولعل قصة ”بيت” (ص 168 – 171) تمثل، بإيجاز، هذا الاشتباك المؤلم. فهي تتحدث عن موت شاعر فلسطين الكبير عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) الذي ترك مفتاح بيته في حيفا لابنه في دمشق. ويروي سلمان منصور الذي كان التقى أبو سلمى في إحدى دول البلقان أنه حينما سمع بموت أبو سلمى ذهب إلى حنا نقارة، صديق أبو سلمى، وقال له: خذني إلى منزل أبو سلمى. وهناك، وجد امرأة رومانية عجوزاً تقطن منذ سنة 1949 في ذلك المنزل المتداعي. وبينما كان حنا نقارة يشير إلى الصالون الذي كان يلم شتات الأصدقاء، كان هناك حوار شجي يدور بين تلك المرأة وسلمان ناطور. وانتهى هذا الحوار بعبارة: ”مسكين هذا الشاعر” قالتها العجوز، وبعبارة سألت على خد حنا نقارة الذي راح يشير، وهما يعبران ذلك الحي الحيفاوي، إلى معالم تلك الأماكن قائلاً: ”هناك بيت فوزي بندر [...] وهذا بيت زكي التميمي، وهذا لحسين عبد الصمد، وهذا للدجاني، وهذا للعنبتاوي، وهناك نصار الفرمشاني، وهذا بيت المحامي عيسى هزو”. هؤلاء هل حملوا معهم مفاتيح بيوتهم مثل أبو سلمى؟

صقر أبو فخر

(*) أبرز هذه المجموعات: "خمارة البلد" و"أبو العبد في قلعة زئيف" و"كاتب غضب". وله أيضاً في الأدب التسجيلي: "وما نسينا" (1983)، و"هل قتلتم أحداً هناك؟" (2000).

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر: http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx